مباحث علوم القران في تفسير زهرة التفاسير لمحمد ابو زهرة جمعاً ودراسة

م.م. اسامه اسماعيل خليل
almahdaweosama@gmail.com
المديرية العامة لتربية ديالى

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين اما بعد:

لقد انعم الله–سبحانه و تعالى–على هذه الأمة، و رفع من شأنها و أعلى مرتبتها إكراما لرسولنا محمد صلى الله عليه و سلم و جعلها أمة متساوية لا فرق فيها بين الغني و الفقير، و لا بين الأبيض و الأسود، بل جعل الله التقوى محل التفضيل، و العلم مناط التشريف، فقال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). و لقد بين نبينا صلى الله عليه وسلم هذه المنزلة بقوله: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة". و لقد سخر الله لهذا الدين من يظهره، و للقرآن من يبينه على امتداد تاريخ أمة الإسلام. وممن شرف بأمانة توضيح آيات الله في هذا العصر الشيخ محمد أبو زهرة الذي فسر القرآن بداية من سورة الفاتحة إلى الآية ١٩ من سورة النمل في تفسير قيم، سماه (زهرة التفاسير). اخترت هذا الموضوع لما له من أهمية في إبراز جهود الإمام أبي زهرة في تفسير آيات الله، محاولا إبراز معالم منهجه في علوم القرآن و أسلوبه في حل الإشكاليات والقضايا المتعلقة بالتفسير.

الكلمات المفتحاحية: القرآن ، تفسير، العلم .

Quran Sciences Detectives in Explanation of Flower of interpretation for Muhamed Abu–Zahra – Collect and Study

Osama Ismail Khalil
General Directorate of Diyala Educatin

Abstract

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the best of Allah 's creation, our Prophet Muhammad, and upon all his family and companions. As for what follows:

Allah – Glory be to Him – has bestowed His blessings upon this nation, and raised its status and its highest rank in honor of our Messenger

Muhammad, may Allah bless him and grant him peace, and made it an equal nation in which there is no difference between the rich and the poor, nor between the white and the black. Rather, Allah made piety The place of preference, and knowledge the place of honor. Allah Almighty said: (Indeed, the most honorable of you in the sight of Allah is the most pious of you.) Our Prophet, may Allah bless him and grant him peace, explained this status by saying: "Whoever follows a path seeking knowledge, Allah will make easy for him a path to Paradise." Allah has subjected to this religion those who demonstrate it, and to the Qur'an those who explain it throughout the history of the nation of Islam.Among those who had the honor of faithfully explaining the verses of Allah in this era was Sheikh Muhammad Abu Zahra, who interpreted the Qur'an from Surat Al-Fatihah to verse 19 of Surat An-Naml in a valuable interpretation, which he called (Flower of Interpretations).

I chose this topic because of its importance in highlighting the efforts of Imam Abu Zahra in interpreting the verses of Allah, trying to highlight the features of his approach to the sciences of the Qur'an and his method in solving problems and issues related to interpretation.

Keywords:Qur'an, interpretation, science.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أرسل بالحق محمدًا (ﷺ) هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار. أما بعد:

يقول الامام محمد ابو زهرة رحمه الله :كان أحب إليَّ منذ كنت طالبًا علم القرآن، ودراسة هذا الكتاب العظيم في بيانه المعجز الذي تحدى العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، وتحدى الخليقة إلى اليوم فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ،وهو يتحدى الفكر الإنساني ببلاغته، ومعانيه، وقصصه، وشريعته، وتوجيهه الأنظار إلى الكون بما فيه من ذكر السماوات والأرض، وخلق الإنسان، واختلاف ألوانه وألسنته، والنفس الإنسانية في خواطرها، وما يعليها، وما يُدسِّيها، وسيطرة الخالق على ما خلق، له الملك في السماوات الأرض وهو على كل شيء قدير، كنت طالبًا بالأزهر ثم بمدرسة القضاء الشرعي، وكنت أميل إلى علم تفسير القرآن؛ يصغي قلبي إليه، ويصبو فكري نحوه، وذلك من بين علوم الإسلام وعلوم الحياة المختلفة التي كانت تدرس، فكان لكل علم ناحية

في نفسي، أما علم القرآن فكان قلبي كله له ،ولما تخرجت في هذه المدرسة كان حب القرآن وعلوم القرآن مختلطا بنفسي، ومن حسن المصادفات الموفقة أن يكون أول درس ألقيه، بعد أن شددت في العلم، هو القرآن.

الدراسات السابقة :

١- (منهج الشيخ أبي زهرة في التفسير و علوم القرآن الكريم من خلال كتابه زهرة التفاسير) . رسالة ماجستير جامعة أم درمان الإسلامية, السودان.

٢- أبو زهرة في رأي علماء العصر، تأليف أبو بكر عبد الرازق.

٣- أبو زهرة إمام عصره، تأليف أبو بكر عبد الرازق.

٤- أبو زهرة عالما إسلاميا، الباحث ناصر محمود وهدان.

خطة البحث: بتوفيق من الله حذوت في كتابة هذا البحث وفق خطة تتألف من مقدمة ومبحثان وخاتمة ومصادر ,ومطالب عدة تصف التعريف بحياة المؤلف الشخصية ، وصفاته الخلقية والخلقية ومساهماته العلمية ووفاته وفي المبحث الثاني اهم مباحث علوم القران الكريم في تفسير زهرة التفاسير.

المبحث الاول حياته الشخصية

المطلب الاول اسمه وكنيته لقبه:

مولده :ولد الإمام محمد أحمد مصطفى أبو زهرة في مارس سنة ١٨٩٨ م في مدينة المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية، و حفظ القرآن الكريم في صدر حياته في الكُتَّاب، إذ هو من أسرة دينية تنتسب إلى ولي من أولياء الله هو الشيخ مصطفى أبو زهرة الشهير بالششتاوي الذي يزار ضريحه بمسجده ببلدة شيشتا في مدينة المحلة الكبرى ووالده هو الشيخ أحمد مصطفى أبو زهرة مشهور بالصلاح والالتزام بالدين الحنيف ومكارم الأخلاق ووالدته حافظة للقرآن الكريم وكانت تراجع معه ما حفظ قبل الذهاب إلى الشيخ في الكتاب، وتميز عن إخوته وأخواته بحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز التاسعة من العمر، ولأنه كان ذا حافظة قوية، سريع البديهة فلم ينل من قسوة أستاذه بالكتاب إلا قليلا[١]، كانت الأسرة من متوسطي الحال يظنها الناس من الأثرياء اشتهرت بالعلم والذكاء، وقد نبغ منها شقيقه الأستاذ الدكتور مصطفى أحمد أبو زهرة منشئ ورئيس قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) وأيضا الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة لندن بإنجلترا[٢]، حفظ القرآن الكريم تعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضيات، التي

[١] علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم ،محمد أبو زهرة إمام الفقهاء المعاصرين والمدافع الجرئ عن حقائق الدين، المؤلف: محمد عثمان شبير،الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م، المصدر: الشاملة الذهبية،٤٣.

[٢] نفس المصدر السابق ، ٤٤.

كان شديد الولع بها، والجغرافية والفلسفة مع العلوم العربية، التحق في سنة ١٩١٣ م بالجامع الأحمدي بطنطا ومكث فيه ثلاث سنين، وفي هذه الفترة ابتدأ نبوغه وتفوقه يظهر حتى أن شيخ الجامع وهو الشيخ الأحمدي الظواهري الذي صار شيخا للأزهر، اقترح أن يمنح مكافآت خاصة لامتيازه، كما اقترح بألا يمكث في طلب العلم الأزهري خمسة عشر عاما، كما كانت المدة المقررة، بل إن مثله يصح أن يتجاوز سنين عدة في سنة واحدة، ولم يتم تنفيذ هذا القرار لصعوبته قانونيا، ولانتقاله إلى مدرسة القضاء الشرعي، التحق في سنة ١٩١٦ بمدرسة القضاء الشرعي بعد امتحان مسابقة كان فيها من الأوائل، وتكوينه العلمي الحقيقي كان في هذه المدرسة التي أنشأها سعد باشا زغلول في وزارة المعارف على أن تكون عالميتها من درجة أستاذ وعهد بإدارتها إلى رجل عظيم هو عاطف باشا بركات، ومن وقت أن دخل المدرسة كان ينظر إليه ناظرها عاطف باشا بركات نظرة اهتمام وتشجيع، وقد مكث فيها تسع سنين، أربعة في القسم الثانوي وخمسة في القسم العالي، وفيها اتسعت آفاقه الفكرية ولما تخرج منها ونال شهادة العالمية من درجة أستاذ عام ١٩٢٥ كون لنفسه منهجا فكريا في فهم الشريعة وتفسيرها، وكلما تعمق فيها ازداد إيمانا بها، في ذلك الحين كان قيام ثورة (١٩١٩ م)، فوقف على الكثير من دقائق أحداثها ووقائعها، وأحب سعد باشا زغلول وتعلق به وكان حريصا على حفظ خطبه وترديدها، أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج سنة ١٩٢٧ م وفي هذه السنة عين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعي لمدة ثلاث سنين ثم انتقل بعد ذلك إلى التدريس في المدارس الثانوية العامة لمدة سنتين ونصف ،انتقل في أول يناير سنة ١٩٣٣ م إلى كلية أصول الدين مدرسا للجدل والخطابة فيها ثم تاريخ الديانات والملل والنحل، وفيها أخرج أول مؤلفاته كتاب " الخطابة " وكتاب " تاريخ الجدل "ثم كتاب" تاريخ الديانات القديمة " ثم كتاب " محاضرات في النصرانية "الذي ترجم إلى عدة لغات[١]، في ٢ نوفمبر ١٩٣٤ م نقل مدرسا للخطابة بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) مع بقائه بالانتداب في كلية أصول الدين التي استمر بها إلى يونيو سنة ١٩٤٢ م وارتدى الزيَّ الأزهرى ، وفي سبتمبر سنة ١٩٣٥ م انتقل من تدريس اللغة العربية إلى تدريس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) متدرجا في مراتبها من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ كرسي إلى رئيس قسم الشريعة ووكيلا لكلية الحقوق جامعة القاهرة لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغه سن التقاعد سنة ١٩٥٨ واستمر في التدريس بكلية الحقوق كأستاذ غير متفرغ وفي غيرها حتى توفاه الله عام ١٩٧٤ م. وقد تولى التدريس في كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر سنة ١٩٦٣ م وكذلك معهد الخدمة الاجتماعية وغيره من المعاهد، وقد اشترك في إنشاء وتولى التدريس ورئيسا لقسم الشريعة الإسلامية بمعهد الدراسات الإسلامية ومعهد الدراسات العربية العالي التابع لجامعة الدول العربية

[١] زهرة التفاسير،١/٤.

،واشترك في إنشاء جمعية الدراسات الإسلامية اختير عضوا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في سنة ١٩٦١ م ومقررا للجنة بحوث القرآن ولجنة المتابعة ولجنة السنة المطهرة وشيخا في لجان التقنين للمذهبين الحنفي والشافعي، كان أيضا عضوا بمجلس جامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد البحوث الجنائية والاجتماعية، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجلس محافظة القاهرة[١].

المطلب الثاني صفاته الخلقية والاخلاقية

كان رحمه الله، أبيض اللون، جهير الصوت، شديد الذكاء، سريع البديهة، منظما وحر الفكر، راجح العقل، شديد الإيمان بما يقول، مستقل الرأي لَا يخشى في قول الحق لومة لائم، ويمزج في محاضراته العلم الجاد الوقور بالدعابة الحلوة الخفيفة، كان رحمه الله عالما متبحرا في الفقه وأصوله وفي علوم القرآن وتفسيره، وخطيبا مفوها، وأصوليا متعمقا، ومجتهدا يقرع الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق لَا يشق له غبار يسعى دائما لتقديم الجديد والفريد للمكتبة العربية والإسلامية رافضا أن تكون كتاباته ترددا لأقوال الآخرين لما عرف عنه من اعتزازه بنفسه وبغضه لسيطرة الآخرين بغير حق، كان رحمه الله يعيش للمبادئ ويكافح من أجلها، يناضل لعقيدة يحيا فيها ويعيش لها، يعلن رأيه ويجمع الناس عليه فقد كان فقيها في مقدمة الفقهاء ورائدا تقدم القافلة وقد تشابهت أمامها السبل المتباينة. وقد عرض عليه البقاء والعمل بالخارج فقال: " إن وجودي في مصر هنا يؤدي واجبا أرى أنه أصبح بالنسبة لي أشبه بفرض العين؛ فأنا على ثغر من ثغور الإسلام يتأثر بها أي بلد عربي وأي بلد إسلامي، فمصر هي العقل وهي القلب وهي الأزهر. فكان رحمه الله بحرا زاخرا، وفيضا فياضا، ورائدا عاش حياته حاملًا اللواء يمزج بين العلم والشجاعة، ومن هنا كثر رواده وعظم قصاده وقيمة العالم بما خَرَّج من تلامذة علماء أوفياء في جميع أنحاء العالم وبما أثرى المكتبة العربية والإسلامية من مراجع علمية[٢].

المطلب الثالث المؤلفات والبحوث

بجانب أشهر المؤلفات والموسوعات الإسلامية التي تزيد عن الأربعين فقد كانت له الكثير من البحوث في العديد من المجلات العلمية والاجتماعية: منها مجلة القانون والاقتصاد، ومجلة المسلمون، ومجلة حضارة الإسلام، ومجلة القانون الدولي، وكتاب أسبوع الفقه الإسلامي، وكتاب أسبوع القانون والعلوم السياسية، ومجلة الأزهر، ومجلة العربي والعديد من المجلات بمختلف

[١] الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)،الناشر: دار العلم للملايين, الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ٣٣٣/٥.

[٢] علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم ،محمد أبو زهرة إمام الفقهاء المعاصرين والمدافع الجرئ عن حقائق الدين، المؤلف: محمد عثمان شبير، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م، المصدر: الشاملة الذهبية،٤٨.

الدول العربية. وكذلك عدد لَا يحصى من الأحاديث الصحفية كان يرد بها على المهاجمين للإسلام وللدفاع عن قوانين الأحوال الشخصية[١]، أما في مجلة لواء الإسلام الشهرية لصاحبها أحمد باشا حمزة فكانت للإمام أبو زهرة أربعة أبواب ثابتة هي: تفسير القرآن الكريم، ومقال اجتماعي، وندوة لواء الإسلام، وباب الفتاوى للرد على أسئلة القراء. هذا على مدى ما يقرب من الأربعين عاما فيما لَا يقل عن أربعة آلاف صحيفة ،كان لفضيلة الإمام نشاط واسع في محاضرات وندوات عامة في مختلف الجمعيات الاجتماعية والإسلامية العامة والخاصة داخل مصر وخارجها. لفضيلة الإمام العديد من الأبحاث ألقيت في المؤتمرات والندوات الدولية التي حضرها مثل: حلقة الدراسات الاجتماعية التي انعقدت في دمشق ١٩٥٢ م مؤتمر الندوة الإسلامية الذي عقد في لاهور (باكستان) في الفترة من ٢٩/ ١٢/ ١٩٥٧ إلى ١٣/ ١ / ١٩٥٨ مؤتمر الخبراء الاجتماعيين الذي انعقد عدة مرات بالقاهرة وانعقد بالكويت عام ١٩٥٨ مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد بالجزائر عام ١٩٦٩ ثم بالمغرب عام ١٩٧١ ثم بالقاهرة عام ١٩٧٣. هذا بخلاف المحاضرات والندوات خلال زيارات فضيلة الإمام لدول السودان، والكويت، والجماهيرية الليبية، والجزائر، وسوريا، وغيرها ،قام العديد من الباحثين بعمل رسائل ماجستير ودكتوراه عن الإمام محمد أبو زهرة في باكستان والهند وسائر البلاد الإسلامية كما ترجمت له العديد من المؤلفات[٢].

المطلب الرابع أشهر مؤلفاته وكتبه

كان له العديد من المؤلفات العلمي في كافت العلوم النقلية والعقلية، او هو موسوعة علمية احاطت بكافة العلوم ، ومنها الآتية :-

الخطابة، و تاريخ الجدل، و تاريخ الديانات القديمة، و محاضرات في النصرانية، ومحاضرات في الوقف، ومحاضرات في عقد الزواج وآثاره، مقارنة بين المذاهب الفقهية والقوانين العربية، و أصول الفقه، و أحكام التركات والمواريث، و الجريمة في الفقه الإسلامي، و العقوبة في الفقه الإسلامي، و الميراث عند الجعفرية، و أصول الفقه الجعفرى، و الأحوال الشخصية، والإمام زيد: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام الصادق: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام أبو حنيفة: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام مالك: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام الشافعي: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، والإمام أحمد بن حنبل: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام ابن حزم الأندلسي حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و الإمام ابن تيمية: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، و تاريخ المذاهب الإسلامية جزءان في مجلد واحد، والمعجزة الكبرى (القرآن)، و خاتم النبيين – ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات، و الملكية ونظرية العقد، و شرح قانون الوصية،

[١] الأعلام،٣٣٧/٥.

[٢] الأعلام، ٣٣٩/٥.

و الدعوة للإسلام، و الولاية على النفس، و العقيدة الإسلامية، و المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، والتكافل الاجتماعي في الإسلام، و العلاقات الدولية في ظل الإسلام، و تنظيم الإسلام للمجتمع، و تنظيم الأسرة وتنظيم النسل، و بحوث في الربا، و الوحدة الإسلامية، و نظرية الحرب في الإسلام، و مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الروماني، و بحث في قانون الأسرة نشر بكتاب عن الفقه الإسلامي بنشرة معهد واشنطن للقوانين الدولية ،و بحث في السياسة الإسلامية نشر في مجلة القانون الدولى المصرية، و نظرات في العبادات الإسلامية، و- تفسير القرآن الكريم (زهرة التفاسير) حتى الآية ٧٣ من سورة النمل[١].

المطلب الخامس وفاته

عقد الإمام محمد أبو زهرة أوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفي جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدي على الشريعة الإسلامية، وفي مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق في مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشئون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبي لمناقشة هذا الأمر في سرادق كبير في شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية الزيتون، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا في صباح يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوي وشرع في إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على آخر ما وصل إليه في التفسير وأيضا الورق الذي به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب. وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذي أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبي هو سرادق العزاء للإمام رضي الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة[٢]

المبحث الثاني اهم مواضيع علوم القران

المطلب الاول وصف عام

يقول الامام ابو زهرة: أن القرآن كتاب مبين لَا يحتاج إلى تفسير، فإنه لَا إبهام فيه يحتاج إلى توضيح، وكل من يحاول توضيحه لَا يصل إليه، فمن ذا الذي يصل إلى آفاقه، وممن كتب في تفسيره من الماضين من حجب معانيه بكثرة الأقوال المتعارضة والآراء المتباينة، حتى أثار غبارا حجب عن الباحث نوره، ولكن القرآن الكريم فيه فقه هذا الدين، وفيه خبر من مضى، وعلم

[١] زهرة التفاسير،١/١٠.

[٢] علماء ومفكرون معاصرون ، ٥٥.

الآخرين، وفيه علم الكون والوجود الإنساني، وفيه توجيه إلى مناحي الحياة، وفيه القصص الحكيم، وفيه أسماء الأماكن وإشارات إلى وقائع، وفي الجملة فيه الكون والإنسان، وهو فوق ذلك حمَّال للمعاني السليمة، وفيه علوم الدولة والآحاد، فلابد من أن يتصدى لذلك أهل الخبرة في العلوم، والفقه، واللغة والبيان، وإن كانوا لَا يبلغون الغاية، ولاينالون مما يبغون الكفاية، فلابد أن يكون للقرآن تفسير تتولاه جماعة علمية، من أولى العَصَبة من العلماء، ولكن لَا نجد التعاون العلمي الجماعي، في الحاضر، وقد حاولناه مع غيرنا، ولم نجد ذلك التعاون في الماضي، وإن وجدنا مخلصين لله وكتابه، مستبحرين في علوم الآثار واللغة، ويا حبذا لو أن هؤلاء اجتمعت آراؤهم، وأضيف إليها ما يراه علماء الكون في آيات الله الكونية، على ألا نطوع القرآن لنظرية مفروضة، ولا أن نرهق ألفاظه لتحتمل نظرية لم يتحقق صدقها، ولكن ليستعان به لتأييدها، لَا كأولئك الذين يرون صحة الفروض التي تقول بالنشوء والارتقاء ويريدون أن يؤيدوها من القرآن[١]، أو يحملوا ألفاظ القرآن لها ليروجوها اتجهنا إلى كتابة معاني القرآن، كما ظهرت لنا، وكما أدركت عقولنا، وكما بلغته طاقتنا، غير محمِّلين وضعًا ما لَا يحتمل، أو نطوعه لتفكير سيق إلينا، ولسنا منكرين لما بذله العلماء الذين خصوا معاني القرآن بأكبر عناية، بل إننا نجد فيما كتبوا أو نقل عنهم ذخيرتنا التي ندَّرع بها غير مفتاتين عليهم في قول، ولا متهجمين عليهم في رأي، ومنهم من قام على الحق المبين، أو يستمد قوته من أثر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يتجافى عن النص القرآني في ظاهره ونصه، فإن جافاه حذفناه، ونظرُنا في ذلك هو نظر شيخ الفقهاء أبي حنيفة النعمان فهو لَا يقدم أثرًا على نص قرآني ظاهر الدلالة أو هو نص فيه[٢]، ولا نتهجم بذلك على حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الحكمة كلها كما قال ذلك الإمام الشافعي رحمه الله، فقد فسر الحكمة في قوله تعالى: (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، بأن الحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رددنا منها ما يخالف القرآن فنحن نرد ما يجعلها فوق القرآن، وبالأحرى يكون ذلك تمحيصًا للسنة، وتبيينًا لصحيحها من سقيمها، إن عبارات القرآن التي هي نص في دلالتها، ومعانيها، فيها تنزيه لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنزيه للبعث المحمدي، فإنما ندفع الريب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا نتهجم عليه ولا على حكمته، كتلك الآثار التي توهم أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحِرَ، وكتلك الأخبار الكاذبة التي تقول إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قال عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. إنا نرد هذا وأشباهه تنزيها للرسالة المحمدية الإلهية، مهما يكن راويها من الثقة، ونعدها عليه، وليس بمنزه عن الخطأ والنسيان، ودخول الغلط

[١] زهرة التفاسير، ١١/١.

[٢] زهرة التفاسير, ١٠/١

عليه[١]، وأخشى أن أقول إن من يعتقد ذلك يكون كأهل الجاهلية الذين قالوا: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)، فليبحثوا عن موقفهم كمسلمين مؤمنين، وذلك لأنهم آثروا راويا على القرآن وعلى الرسالة المحمدية كلها، إذ جعلوا الشك يَرِد على بيانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا كنا قد رددنا بعض ما ينسب للرسول صلى الله عليه وسلم فنحن نعد المفسر الأول للقرآن هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو المفسر لأحكامه المبين لحقائقه، ولا نتصور أن نجد بيانًا يفوق بيان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يفصل مجمله، ويبين ما يعلو على مدارك الناس، وإن كان في ذاته مبيَّنًا، ولا يصح أن نفتات على الإسلام فنرد قولا صح عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ما دام القرآن يتسع لمدلوله[٢]، ولا نقدم عليه احتمالا آخر مهما تكن مكانة قائله من الفقه والبيان، فإنه مهما يكن لَا يناهد مقامه مقام مبلِّغ الرسالة في الإحكام، ولا مقامه في البيان، وإدراك معاني القرآن، ولذا نعد السنة النبوية هي المفسر الأول[٣]، ويلى ذلك تفسير الصحابة الذي صحت نسبته إليهم، وخصوصا علماءهم، والسابقين الأولين الذين قال تعالى عنهم في بيعة الرضوان: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)[٤].

ونأخذ بأقوال هؤلاء على أساس ألا تخالف نصا قرآنيا، أو تناهضه، أو تحمله ما لَا يحتمل، وعلمُهم بالقرآن أعظم من علمنا به، إذ كانوا كما أشرنا من قبل أهل بيعة الرضوان، لَا الذين جاءوا بعد الحديبية، وكان بعض أولئك من الذين لهم جهاد مذكور مشهور، لَا يغض من مقامهم، ولكن ليسوا حجة في فهم القرآن إلا من ناحية اللغة والبيان، فإن ذوقهم العربي ربما يجعل لقولهم مكانًا، ولم يعن أحد من هؤلاء بالتفسير رواية أو دراية، لأنهم شغلوا بغيره، إلا ما كان من ابن عباس رضي الله عنه، وأشباهه من شباب الصحابة الذين وَعَوا أفاويقه في آخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم بعض من التزموا الرسول صلى الله عليه وسلم ،فقد كان ابن عباس رضي الله عنه ترجمان القرآن كما عبر بعض علماء الصحابة، وقد أخذ من علم كثير من الصحابة، وخصوصا ابن عمه عليًّا كرم الله وجهه، الذي قال فيه ابن عباس: ما انتفعت بكلام بعد كلام محمد صلى الله عليه وسلم كما انتفعت بكلام عليٍّ كرَّم الله وجهه[٥]. فقد كان عليٌّ أستاذه بعد المرشد الأكبر محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن الصحابة علموا التابعين

[١] الحضيري، محمد أبو القاسم محمد. (٢٠٠٧ .(منهج الشيخ أبي زهرة في التفسير و علوم القرآن الكريم من خلال كتابه زهرة التفاسير) .أطروحة ماجستير). جامعة أم درمان الإسلامية, السودان.١٢.

[٢] مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، المؤلف: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، الناشر: دار البيان العربى – القاهرة، ٣٤.

[٣] زهرة التفاسير،١٢/١.

[٤] سورة الفتح آية ١٨.

[٥] زهرة التفاسير،١٣/١.

مما تعلموا من فهم القرآن وأولئك هم التابعون، فما صح عن التابعين أهل الثقة الذين لازموا الصحابة واختزنوا علمهم، وهو علم بنوه ونقلوه نقلا صحيحا أخذنا به. بيد أنه يجب الاحتراس عند الأخذ من الأقوال المنسوبة للتابعين؛ فإنه قد حدث في عهد التابعين أمران كانا سببا في دخول كلام في تفسير القرآن ليس منه، ولا مقتبسا من روحه:

أولهما : دخول كلام من بني إسرائيل إلى العلم الإسلامي ونسبوه إلى التابعين على أنه من أقوالهم، وقد روى أن بعض من ينسبون إلى صحبة النبي صلى الله عليه وسلم استهواه ما عند اليهود، فنقله، حتى إنه ليُروى أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، نقل في غزوة اليرموك حمل راحلتين مما عند اليهود، وتسرب إلى العقل الإسلامي ونسب إلى بعض التابعين، بل إلى بعض الذين لهم صحبة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكونوا من الرعيل الأول الذي حمل علم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما زال العلماء في هذا يعانون الكثير، مما اختلط بالتفسير من الإسرائيليات، ومحاولة رحض التفسير منها، كما يرحض الثوب الأبيض الناصع من الأقذار التي علقت بهن وإذا كان اليهود عجزوا عجزا مطلقا عن أن يعبثوا بالقرآن كما عبثوا بغيره، فإنهم أتوه من ناحية تفسيره، ولكن ذلك لَا يَمَسُه، بل يَمَسُّ العقول التي لَا تمحِّص ولا تدرك، ولا تحكم بقرآن، ومقاييس العقل؛ ولذلك بقي النبع الإلهي الصافي يدركه من يتأمل ما أحيط به فينبذ الزيف، ويدرك الجوهر الصافي[١].

ثانيهما : أنه في عهد الأمويين، وهو عهد التابعين، وجد من النصارى الذين كانوا في حاشية الأُمويين من يعملون على بث الروايات الكاذبة حول القرآن، وينسبونها للتابعين، كما نرى في القصة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في زواجه بالسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنه ، فقد ادعى النصارى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى زينب في حال أثارت عشقه، فأمر زيدًا أن يطلقها، وأن يتزوجها، وبث هذا الادعاء فيهم يوحنا الدمشقي الذي كان في خدمة الأمويين وراجت هذه الأكذوبة التي لَا أصل لها إلا إفك هذا الأفَّاك، ونقلت عن بعض التابعين[٢]، وفسر بها قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)

[١] مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن،٣٦.

[٢] زهرة التفاسير،١٤/١.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)[١].

راجت هذه الأكذوبة بين المفسرين الذين يتلقون الأخبار من غير تمحيص لذاتها، ولا تعرُّف دقيق لمصادرها. ووقع فيها شيخ المؤرخين والمفسرين محمد بن جرير الطبري، وتكلف وخرَّج عليها تفسير هذه الآيات الكريمة، وتبعه في ذلك المفسرون، حتى الذين من شأنهم أن يمحصوا الحقائق كالزمخشري والرازي وغيرهما، وتلقاها الذين لَا يرجون للقرآن ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم وقارا في عصرنا، فكتب كاتب في كتاب له " محمد العاشق " وتبعه غيره من تلاميذه أو أشباهه الذين لا يمحصون الحقائق وليس للحقائق الإسلامية في قلوبهم روعة تدفعهم إلى التمحيص، وخاض كل المفسرين الذين كانوا قبل الحافظ ابن كثير، الذي ردَّها ومحصها ونقد ابن جرير الذي خاض فيها، وأثبت أنه لَا توجد رواية عن الصحابة في هذا صحيحة أو غير صحيحة ،وظواهر النص القرآني، ومعانيه تنافيها جميعا، وصريح القرآن يردها، فالله تعالى يحكي أن زواجها كان بأمر من الله تعالى، ويخبر أن طلاقها كان بأمر من الله، فالله يصرح بأن الأمر كان الحرج من المسلمين في تزوج زوجة المتبنَّى[٢]، فيقول:(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)[٣]، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان قد تبنَّى زيد بن حارثة، وتزوج زيد زينب على أنه ابنه صلى الله عليه وسلم ، فلما ألغي التبني بحكم الإسلام تململت به، وتململ من كبريائها، فأراد أن يطلقها، فقال له محمد الأمين صلى الله عليه وسلم كما أخبر القرآن: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّه مُبْدِيهِ)[٤]، وهو إرادة الله في الطلاق، وتزويجها النبي – صلى الله عليه وسلم –[٥]، وقال سبحانه: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا)[٦].

المطلب الثاني تفسير القرآن بالرواية

إنه لَا شك أن تفسير القرآن بالرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مقرر ثابت؛ لأن القرآن الكريم بيانه أولا للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويجب تحري السنة الصحيحة، ولا يتبع إلا

[١] سورة الاحزاب من الاية ٣٦ الى الاية ٤٠.

[٢] زهرة التفاسير،١/١٤.

[٣] سورة الاحزاب ، من الاية الى الاية ٥.

[٤]) سورة الاحزاب آية ٣٧.

[٥] زهرة التفاسير،١/١٥

[٦] سورة الاحزاب آية ٣٧.

الصحيح، بيد أنه في بعض المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يخالف ما نحسه ونعاينه، كقول بعض المفسرين معتمدين على بعض الروايات بأن بعض الأنهار تنبع من الجنة وأنها تفيض منها، مع أنه ثبت بالمعاينة أنها تفيض من سيول في جبال، أو تنبع من منابع وبحيرات يراها الناس. ومن المقرر أنه إذا كان حديث آحاد بما يثبت العقل أو الرؤيا نقيضه، يُرَدُّ حديث الآحاد، ويثبت بطلان نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ما يُثبِت علم علماء الكون خلافه ثبوتا قطعيا بالبرهان القاطع الذي لَا يتطرق إليه ريب، فقد ذكر الغزالي أنه إذا كان خبر الآحاد يناقض ما أثبته العلم ثبوتا قطعيا، ترد نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو يؤوَّل[١]، وإن النص المناقض قطعيا يؤول بما لَا يكون بينه وبين العلم القطعي خلاف، وقد أكدنا في عباراتنا أن العلم الذي يؤوِّل النص القطعي، أو نرد به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون علمًا قطعيًّا، لكيلا نغير في النصوص بفروض ونظريات لم تثبت بدليل قطعي، ولا يلتفت إليها إزاء النصوص، ولو كانت خبر آحاد ثبتت صحته؛ لأنها فروض لم تؤكد بدليل قطعي كنظرية النشوء والارتقاء، فإنها فروض لم يثبت صدقها. وإنما الأخبار الصحيحة أي من حيث السند التي تكون تفسيرًا للقرآن ولا تجوز مخالفتها هي الأخبار التي لَا يطعن في صحة متنها ولا تخالف أمرًا يقطع العقل بخلافه[٢].

المطلب الرابع تفسير القرآن بالرأي

ابو حامد الغزالي أجاز التفسير بالرأي، وفتح الباب، ولكن قبل أن نقدم إسناده من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة نحرر رأيه، فهو لَا يهمل السنة ولا آثار الصحابة وأقوالهم، ويقرر أن ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بسند صحيح لَا تصح مخالفته، ويجب الأخذ به، لَا يفتح الباب على مصراعيه لكل من يرى رأيا فيفسر القرآن برأيه، بل يجب أن يكون عنده علم اللغة، وعلم القرآن، وعلم السنة، لكيلا يقول على الله تعالى بغير علم، وإن الفهم في كتاب الله تعالى باب متسع لكل من عنده أداة الفهم لعلم القرآن، ويستدل على ذلك بنصوص من القرآن والسنة وأقوال الصحابة، إن القرآن الكريم فيه كل علوم الدين بعضها بطريق العبارة، وبعضها بطريق الإشارة، وبعضها بالإجمال، وبعضها بالتفصيل، وإن ذلك يحتاج إلى التعمق في الفهم، والاستبصار في حقائقه. وذلك لَا يكفي فيه الوقوف عند ظواهر التفسير التي تجيء على ألسنة بعض السلف، بل لابد من التعمق، واستخراج المعاني ما دامت لَا تخالف صريح المأثور، ولكنها أمور تسير وراءه، وعلى ضوئه وعلى مقتضى هديه؛ ولذا قال عبد الله بن مسعود رضي

[١] إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ٥٥/١.

[٢] زهرة التفاسير ، ١٧/١ .

الله عنه: (من أراد علم الأولين والآخرين، فليتدبر القرآن)[١] وإن ذلك لَا يكون بغير التعمق في الفهم والتعرف بالإشارة للمَرائي البعيدة والقريبة من غير اقتصار على ظاهر النصوص،إن في القرآن بيان صفات الله سبحانه وتعالى، وذكر ذاته القدسية وأسمائه الحسنى، وإن معرفة ذلك مع التنزيه وعدم المشابهة للحوادث يحتاج إلى تدبر وبيان ليعرف القارئ لكتاب الله تعالى أنه سبحانه وتعالى منزه نزاهة مطلقة عن المشابهة للحوادث، إنه قد وردت آثار كثيرة تدعو إلى الفهم والتدبر، فقد قال علي كرم الله وجهه : (من فهم القرآن فسَّر به جمل العلم)، وقال رضي الله عنه: (ما أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه)[٢]، إن عبارات القرآن تدعو إلى فهمه فقال تعالى: (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[٣]، فقد قال فقهاء السلف إن الحكمةَ هي فهم القرآن، وإذا كان فهم القرآن خيرا كثيرا، فإنه سبحانه يدعو القادرين على الفهم للبحث والتأمل والنظر في الآيات وفهمها[٤]، ولقد قال تعالى: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ)[٥]، وفي هذا دعوة إلى الاستنباط، واستخراج المعاني العميقة، كما يستنبط الماء من الآبار، وفيه إشارة إلى وجوب تعرف معاني القرآن بالفهم بصحيح كما يتعرفونها بالآثار الصحيحة، فهما طريقان مستقيمان، فمن منع أحدهما فقد خالف العقل والنقل[٦].

المطلب الخامس التفسير بالمأثور

المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، و لكي يصح الوقوف على تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون كل ما نأخذ به من تفسير مسندًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ثابتا بالضرورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يتصور أن يكون ذلك من غير النبي صلى الله عليه وسلم وليس للرأي فيه مجال، فإذا كان للرأي فيه مجال فاحتمال أن يكون ذلك من رأى الصحابي أو التابعي، وخصوصا أنه في عهد التابعين أدخلت الإسرائيليات، وإن ما نقل لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفسير ليس كل التفسير، ولا جُلَّه أن الراجح أن تفسير الصحابة الذين قالوه لم ينسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان من المحتمل أن يكون بآرائهم، وإن كان لها فضل الاقتباس من هدى

[١] مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، ٣٧.

[٢] نفس المصدر السابق , ٤٢.

[٣] سورة البقرة ، آية ٢٦٩.

[٤] مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، ٣٩.

[٥] سورة النساء، آية ٨٣.

[٦] زهرة التفاسير،١٨.

النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن واجب الاقتداء بهم أن نفسر بالرأي مثلهم مسترشدين بأقوالهم في فهم الآيات كما نسترشد بآرائهم في الفقه، وفي معاني الألفاظ العربية[١].

أن الصحابة اختلفوا، وكذلك التابعون، وسماع كل هذه الأقوال محال، فلا بد أن يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح. ولو كان بعضها مسموعا لوجب رد الباقي، ولا يمكن معرفة ما يرد وما يبقى؛ لأن المسموع منها غير متميز ولا معين، ويؤدي هذا إلى أن بعض هذه الاقوال كان بالرأي، وأن المتبع للآثار ولا يعدوها لَا يكون له مناص من أن يختار من هذه الأقوال المختلفة، وأن ذلك سيحمله على أن يعمل الرأي في تخير ما يختار، ويكون المتبع قد فر من الرأي ابتداء ثم وقع فيه انتهاء، ويبين الغزالي موضع النهي عن الرأي في فهم القرآن فيرى أن يكون له رأي في موضوع الآية، ويميل إليه بطبعه وهواه، فيتأوَّل الآية من القرآن لتكون على وفق رأيه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى ما كان ليلوح إليه ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم بأنه ينزل القرآن على فكره وهواه كبعض المبتدعة الذين يجادلون في آيات الله ويلحفون في الجدل للغلب، المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الألفاظ من غير معرفة المنقول في موضوعها، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض، ومن غير معرفة العرف الإسلامي الذي خصص كبعض الألفاظ العربية، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وإدراك مواضع الإضمار والحذف، وغير ذلك من الأساليب القرآنية المعجزة، فإن ذلك يكون تفسيرا بالرأي من غير أهله، واجتهادًا في الفهم بغير أدواته، وليس ذلك من التفسير بالرأي، إنما ذلك من التهجم على ما لَا يحسن والعمل فيما لَا يتقن، وذلك قبيح في كل شيء [٢].

المطلب الخامس الطريقة المثلى في فهم القرآن

إن الطريقة المثلى التي توصل إلى الغاية في فهم القرآن، وتعرف معانيه، وإدراك دلائل إعجازه هي الاعتماد على النقل والعقل، فلا يصح الاقتصار على النقل وحده، ولا على العقل وحده، وإنما النظر الأمثل هو أن يعتمد على العقل والرأي وعلى السماع من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فهم القرآن، فظواهر القرآن من الألفاظ، والآثار التي تعاضد الظاهر، لَا تكفي وحدها بل تساعد العقل، وتفتح له السبل لاستخراج معاني القرآن المتسعة الأفق البعيدة المدى التي توجه الفكر إلى أعمق الحقائق العلمية والكونية والنفسية، وكلما تفتح العقل في ظل إدراك الألفاظ وظواهر اللغة أدرك إدراكا صحيحا ما تشير إليه الحقائق الكونية، وما يشير إليه القرآن، إنه كلما اتسع أفق العقل البشرى في فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم، ولعل هذا هو الحقيقة التي أشار إليها بعض الصحابة، إذ روى عن أبي الدرداء أنه قال:

[١] زهرة التفاسير،١٧/١.

[٢] زهرة التفاسير،١٨.

(لا يفقه الرجل، حتى يجعل للقرآن وجوهاً أي اتجاهات متلاقية، ولكن بعضها أعمق من بعض، وكله حق)[١]، فالمعنى الظاهر لكل مُلمٍ باللغة العربية هو أن السماوات والأرض كانتا متصلتين، وهذا معنى سليم هو الظاهر، والعالم المدرك للأكوان الباحث فيها يعرف كيف كانت السماء والأرض كتلة واحدة، وكيف انفصلت الأرض وتكونت عليها القشرة الأرضية، وكيف كان الماء العذب، والملح الأجاج[٢]، وهكذا نجد أن كل تالي للقرآن يدرك من معانيه بمقدار إدراكه وعلمه،أن المعاني اللغوية، وما يشير إليه النقل والسماع هو المفتاح والطريق للمعنى العميق الذي يدركه الناس كلما تفتقت العقول واتسعت المدارك واطلعت على حقائق الكون، وأدركت معاني الآيات الطالبة للنظر في الكون، فهو اللوح الذي كتبت فيه حقائق هذا الوجود، وفيه الدلالة على وجود الله تعالى، وإبداعه. ويقول الغزالي في ذلك: " العقل والسماع لابد منهما في ظاهر التفسير أولا؛ ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط واستخراج الغرائب التي لَا تفهم إلا بالسماع، ولا مطمع في الدخول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن وهو لم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يريد البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لَا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لابد منها للفهم[٣] .

والمعنى الباطن الذي جاء على حكم الغزالي ليس هو ما عند الباطنية كما ذكرنا، إنما هو تحري الدقائق التي تكون في مطويّ ألفاظ القرآن، والأسرار التي لا يدركها إلا العلماء المتخصصون في العلوم المختلفة كل بمقدار طاقته في علمه بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإضمار، وعموم وخصوص، وإطلاق وتقييد.

ويقول حجة الإسلام عمّا فيه من أسرار ما نصه: " وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسرار بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه، أما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلامًا، فأسرار كلمات الله تعالى لَا نهاية لها، فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لَا يغني عنه.

هذا ما نقلناه عن الغزالي وذلك ما قاله ابن تيمية، ونحن بلا ريب نأخذ برأي الغزالي وعليه سار المفسرون، حتى مُفسرو الروية، فإنهم لَا يردونه، حتى شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري، فاختياره من أقوال التابعين فيه عمق، واتجاه إلى تعرف الأسرار في الألفاظ القرآنية،

[١] إحياء علوم الدين، ٦٦/١.

[٢] زهرة التفاسير، ١٩/١.

[٣] زهرة التفاسير، ٢١/١.

والعبارات، واستقصاء المعاني[١]. وقد يقول قائل: إن الغزالي يشجع تفسير القرآن بالعلوم الكونية، فهل نشجعه كما شجع للإجابة على هذا السؤال نقول: إن ما يكون من آيات القرآن دالا على حقيقة علمية ، فإنه بلا ريب أن بيان الحقيقة العلمية يكون من بيان القرآن، ويعتمد فيه على كلام أهل الخبرة، وذلك كقوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)[٢]، فهذه الآيات وأمثالها كثير، ولابد فيها من الاستعانة بأهل الخبرة، ويقررون في ظلها الحقائق العلمية، تفسَّر الآيات الكريمات بنظريات وفروض لم يقم الدليل القاطع عليها، وقد تتغير العلوم الكونية بتغير النظريات حولها وقتا بعد آخر، ولا يصح أن يفسر القرآن بنظريات قابلة للنقض والتغير إنه كتاب الله تعالى لَا تبديل لكلماته، وهو العزيز الحكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ألا يكون الاتجاه إلى تحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، فلا تجهد الآيات إجهادا ليطبقوها على الحقائق أو ليطبقوا الحقائق عليها، بل لَا يفكر أهل الخبرة في أسرار الآيات إلا ما يكون ظاهرا واضحا كما رأينا في الآيات التي تُلِيَتْ، ويكون عمل الخبير العلمي تصويرها من غير إجهاد لألفاظها، أو تحميلها ما لَا تحتمل، وإن الأخذ بهذا المنهاج السليم فيه بيان للقرآن الكريم، وصيانة له، وبعد به عن مواطن الشبهات[٣]

المطلب السادس كتب التفسير في علم الكلام

كثر القول في تفسير القرآن الكريم في الكتب التي تصدت للتفسير كتفسير الزمخشري، وفخر الدين الرازي وغيرهما من أمهات كتب التفسير في أمور هي من علم الكلام؛ كتعلق إرادة الله تعالى بأفعال العباد، وكذلك الآيات القرآنية التي تتعرض للمشيئة والإرادة، وهداية العبد وضلاله، وللصفات أهي غير الذات، أم هي والذات شيء واحد، وغير ذلك من مسائل علم الكلام. والزمخشري مع مقامه في البيان، وإثباته إعجاز القرآن من تفسير القرآن، يذكر مذهبه الاعتزالي ويخرج تفسيره على هذا المذهب، وتعقبه من جاء بعده في إثبات صحة مذهب الأشاعرة أو الماتريدية، حتى يغلب القول التفسير والبيان، وتختفي معاني القرآن الكريم في لجاجة التعصب المذهبي، وهذا النوع من التفسير هو أحد القسمين اللذين ينطبق عليهما النهي عن الرأي؛ لأن المفسرين سبقت آراؤهم تفسيرَهم، فحمَّلوا معاني القرآن على ما يوافق مذهبهم،

[١] المنتخب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، المؤلف : علوي بن عبد القادر السَّقَّاف
الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة : الأولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م ،٢٢٥.

[٢] سورة الدخان ، آية ١١ و١٢.

[٣] زهرة التفاسير،٢٣/١.

والقرآن الكريم فوق آرائهم، ومعاني القرآن فوق كل رأي ومذهب، وتحمل الآراء والمذاهب على معاني القرآن لأنه الأعلى، وهو الشرع الحكيم[١] .

المطلب السابع أحكام بالنصوص القرآنية

أن اختلاف الآراء الفقهية حول ما ثبت من الأحكام بالنصوص القرآنية قليل، فلا اختلاف لأنظار الفقهاء في آيات الأحكام بالنسبة للزواج وشروطه، والمحرمات، وغيرها، والاختلاف أساسه اختلاف الروايات، وهو في الأحكام الفقهية نادر، ولا يعلو إلى درجة الاختلاف الذي يورث عداوة، أو يوجد ترامیا بالكفر والخروج عن الربقة عند العلماء رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وليس ثمة خلاف جوهري في أمر يتعلق بالأحكام الثابتة بالقرآن إلا الاختلاف بين جماهير المسلمين وطائفة الإمامية في الميراث، وهذا الاختلاف لا يخرج عن دائرة الثابت بالقرآن، وهو في تقديم بعض الورثة على بعض، فليس ثمة خلاف في أن للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا في أن الميراث يكون للأقرب فالأقرب، ولكن الاختلاف في معنى القرابة أحيانا، وأحيانا نجد النص القرآني يقرب، ولا يبعد[٢].

ومسلكنا في آيات الأحكام أن نذكر الأحكام الثابتة بالقرآن بإجمال مستعينين بالسنة القولية والعملية في العبادات، وفي الأنكحة، وغيرها. نذكر الأحكام بإجمال تفسير الآيات القرآنية مبينين ما يحتاج إلى بيان بالسنة النبوية، مرجحين ما يتفق مع السنة، أو ما نراه أقرب إلى النص، كمعنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ... ﴾، فإنا في هذه نأخذ بما يُفهم من السنة[٣].

وهكذا لَا نتعرض للخلاف الفقهي إلا في أضيق دائرة، وما يوجبه علينا ذكر معاني القرآن واضحة نيرة كشأنها دائما، ولا نخضع هذه المعاني لآراء الفقهاء، إنما نخضع آراء الفقهاء لها؛ لأنها الحكم الذي لَا ترد حكومته، والقرآن هو الحاكم بالصحة لآراء الفقهاء وليس محكوما بها[٤].

[١] مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، المؤلف: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، الناشر: دار البيان العربى – القاهرة، ٣٤.

[٢] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،١/١١.

[٣] دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد السيد الجليند الناشر: مؤسسة علوم القرآن – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤،١/١٤.

[٤] التفسير والتأويل في القرآن، المؤلف: صلاح عبد الفتاح الخالدي (معاصر)،الناشر: دار النفائس – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م، ٤٥.

المطلب الثامن النسخ في القرآن الكريم

لابد قبل أن نبدي رأينا في النسخ في القرآن الكريم أن نقرر حقائق ثلاثا لابد من بيانها أو الإشارة إليها، نكتفي هنا بالإشارة إليها:

الحقيقة الأولى: أن القرآن الكريم نسخ من الشرائع السابقة التي أتى بها الوحي وهي الشرائع السماوية، فما بقي منها أبقاه القرآن الكريم، ونص على بقائها كبعض أحكام القصاص، وكتحريم الربا، وكتحريم المحرمات وغير ذلك، وكان النص عليه في القرآن الكريم دليلًا على بقائه من غير نسخ.

الحقيقة الثانية: أن النسخ جرى في السنة، ذلك أن السنة كما تتولى بيان الأحكام تتولى علاج المسائل الوقتية، ويختلف الحكم الوقتي في بعض الأوقات عنه في بعضها؛ ولذا جرى النسخ في السنة[١].

الحقيقة الثالثة: أن القرآن الكريم سجل هذه الشريعة الخالدة، بل سجل الشرائع السماوية، ومعجزات النبيين جميعا، وما نسخ منها أشار إلى نسخه، وما بقي منها صرح ببقائه، كالقصاص، وخصوصا في الأطراف[٢]، كما جاء في قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥))[٣]. ولذا نحن نرى ما رآه من قبل أبو مسلم الأصفهاني، وهو أنه لَا نسخ في القرآن قط؛ لأنه شريعة الله تعالى الباقية إلى يوم القيامة، ولأن النسخ لم يثبت بنص عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يصرح النبي – صلى الله عليه وسلم – بنسخ آية من القرآن، وما جاء من عبارات النسخ في القرآن إنما في نسخ المعجزات الحسية بالقرآن الكريم. السبيل[٤].

[١] ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، المؤلف: هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم، شرف الدين ابن البارزي الجهني الحموي (المتوفى: ٧٣٨هـ)،المحقق: حاتم صالح الضامن
الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ٧٥.

[٢] الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية)، الناشر: مكتبه الرشد / شركة الرياض – الرياضن الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م، ١٢.

[٣] سورة المائدة ، آية ٤٥.

[٤] تفسير الراغب الأصفهاني، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة ،تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب – جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م،٦/١.

الخاتمة

اهم التوصيات: .

النتائج التي توصلت إليها : بعد هذه المعايشة الممتعة مع زهرة التفاسير للإمام محمد أبي زهرة، هذا العالم الجليل الذي تميز بالحكمة و الجرأة في قول الحق، و الذي جاهد بعلمه و صبره تلك الدعوات الهدامة و الشبهات

توصلت إلى نتائج علمية من خلال هذه الدراسة كان أهمها : ١

١-إن هذا التفسير يتمشى مع متطلبات العصر و تطور العلوم الدينية، والاجتماعية والكونية..

٢-نقله عن مفسرين لهم مكانتهم في علم التفسير مثل الزمخشري، الرازي، البيضاوي، ابن كثير، الجصاص، القرطبي، رشيد رض زاد من قيمته

٣-ذكره للحديث المسند و الصحيح و الضعيف و استعانته بالصحاح و أصحاب السنن، و هذا العدد الهائل من الأحاديث التي ذكرها دليل غزارة علمه.

٤-لم يغفل العلوم الفقهية و التاريخية، فذكر أعلاما لهم مكانتهم مثل الأئمة الأربعة وابن خلدون ومحمد عبده.

٥-تعرض للديانات القديمة، مثل اليهودية، و النصرانية، مع ذكره لكتب تلك الديانات-التوراة و الإنجيل..

٦-كان أسلوبه واضحا لا تعقيد فيه، يميل أحيانا إلى التلقين المدرسي مع الإطناب

٧- ينساق وراء خواطره و انفعالاته و يترك الموضوعية العلمية..

و خلاصة القول : إن تفسيره جاء ليفي بحاجة أبناء العصر في فهم معاني القرآن الكريم، بروح الأصالة و المعاصرة مع فجوات يتسلل منها النقد، و تلك طبيعة البشر في النقص.

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

المصادر

القران الكريم.

١-إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٢- الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)،الناشر: دار العلم للملايين,الطبعة: الخامسة عشر- أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٣-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

٤-التفسير والتأويل في القرآن، المؤلف: صلاح عبد الفتاح الخالدي (معاصر)،الناشر: دار النفائس – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م،.)

٥-تفسير الراغب الأصفهاني، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة ،تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب – جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩.

٦- الحضيري، محمد أبو القاسم محمد. (٢٠٠٧ .(*منهج الشيخ أبي زهرة في التفسير و علوم القرآن الكريم من خلال كتابه زهرة التفاسير*) .أطروحة ماجستير). جامعة أم درمان الإسلامية, السودان.)

٧-دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد السيد الجليند الناشر: مؤسسة علوم القرآن – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤

٨-زهرة التفاسير، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)،دار النشر: دار الفكر العربي،أعده للشاملة/ أبو إبراهيم حسانين،.

٩-علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم ،محمد أبو زهرة إمام الفقهاء المعاصرين والمدافع الجرئ عن حقائق الدين،المؤلف: محمد عثمان شبير،الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م، المصدر: الشاملة الذهبية،.

١٠-مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، المؤلف: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد
الناشر: دار البيان العربى – القاهرة .

١١-محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن الخطيب اليمني الشافعي المشهور بـ «ابن نور الدين» (المتوفى: ٨٢٥ هـ)، بعناية: عبد المعين الحرش،الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م، .

١٢-ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، المؤلف: هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم، شرف الدين ابن البارزي الجهني الحموي (المتوفى: ٧٣٨هـ)، المحقق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، .

١٣- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية)، الناشر: مكتبه الرشد / شركة الرياض – الرياض،الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م،.